أسَاليِب الطَلَب فِي مُناظرات الإمَام الرِّضَا عليه السلام

Methods of request in the debates of Imam al-rida, peace be upon him

أ. د. طالب عويد نايف حسام قاسم مطير

Prof. dr. Talib Awaid Nayef Husam Qasim Muttair

الجامعة المستنصريّة – كلّيّة الآداب

Mustansiriyah University College of Arts

aldrajeehussam@gmail.com

الملخص:

تَروم هذه الورقة البحثية للوقوف على أبرز الأساليب الطّلبيّة في مناظرات الإمام الرّضا عليه السلام, لأهميتها في التّأريخ الإسلاميّ بنحوٍ عام, فقد صوَّرت الحرية الفكريّة الّتي أكدها الإسلام لجميع أفراد المجتمع, وتجلى ذلك في هذه المناظرات. وسيقف البحث على تحليل أبرز أساليب الإنشاء الطّلبيّ وبيان دلالته في النّص, مع عدم إغفال الجانب النّظريّ فيه, وذلك بتقسيم البحث إلى ثلاثة مطالب هي: (أسلوبيّة الاستفهام, وأسلوبيّة الأمر, وأسلوبيّة النّداء).

الكلمات المفتاحية: أساليب الطّلب, مناظرات, الاستفهام, الأمر, النّداء.

Abstract:

This research paper seeks to identify the most prominent methods of discussion in the debates of Imam Reza, peace be upon him, due to their importance in Islamic history in general, It demonstrated the intellectual freedom that Islam has proven to all members of society, and this was evident in these debates. The research will focus on analyzing the most prominent methods of imperative construction and explaining its significance in texts, and not neglecting the theoretical aspect of it, by dividing the research into three topics: (interrogative style, imperative style, and vocative style).

Key worlds: Request style, Debates, Interrogative, imperative, vocative.

توطئة:

تُقسَّم الجملة العربية –كما هو معلوم– إلى جملة (خبرية) وهي تمثيلٌ للغة بجانبها الثابت والأصيل الذي يُمكن وصفه بالصدقِ والكذبِ, وجملة (إنشائية) وهي تمثيلٌ للغة بجانبها المُتغير, كما أن الجملة الإنشائية لا يُمكن أن توصف بالصدق والكذب, كونه يختص بالجانب العاطفي, فيُعرَّف الإنشاء الطلبي بأنَّه, هو "ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب" (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٦٩), والإنشاء الطلبي ينماز بخروجِ أساليبه عن الأغراض الحقيقة التي وضعت لها, إلى أغراضٍ أخرى تؤدي معاني جديدة ناتجة عن غاية المبدع من إيرادها في النص, فتشكل بذلك انزياحًا تركيبيًا يُمكِّن المبدع من إيرادِ قصديات جديدة يقوي بها دلالة النص ويكثف معناه؛ لأنَّه يرتكز على تأخر وجود معناه عن وجود لفظه (عتيق، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٤), ويرصد البحث الأساليب الطلبية في مناظرات الإمام الرضا عليه السلام, المُتمثلة بأسلوب (الاستفهام) و(النداء) و(الأمر), فضلًا عن حضور أسلوب النهي مُندمجًا مع بقية الأساليب, فاكتفى البحث بالإشارة إليه ضمنيًا في مواضعه.

المَطلَـب الأوَّل

أُسلُوبية الاستِفهَام

يُعدُّ أسلوب الاستفهام من الأساليب الإنشائية الطلبية المهمة في الدراسات الأسلوبية؛ لكونه نمطًا تركيبيًا مؤثرًا في فهم النصوص وتذوقها, أضف إلى ذلك فإنَّه من الملامح التي تَميَّز بها فن المناظرة بشكلٍ عام؛ –ومناظرات الإمام الرضا عليه السلام بنحوٍ خاص– لأنَّ المناظرة قوامها السؤال في أغلبِ مفاصلها. والاستفهام لغةً: من فَهِمَ, الفَهم : فهمًا, وفهامة, وفهمتُ الشَيء, عقلته وعرفته. وأفهمه الأمر, وفهّمهُ إياه : جعله يفهمه. واستفهمه, سأله أن يُفهِمه (منظور، ٢٠٠٥م، صفحة ٤٢٠١٧). أما اصطلاحا: فيُعرَّف بأنَّه "طلبُ المراد من الغير على جهة الاستعلام" (العلوي ي.، ١٩١٤م، صفحة ١٨٦١٣), فالاستفهام إذًا هو طلب الإفهام من الغير, لأمرٍ لم يكن معلومًا من قبل, و يقسم الاستفهام على قسمين:

- الاستفهام الحقيقي: وهو الاستفهام الذي يُستعمل على الأصل الذي وقع له في اللغة أي هو "طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبل" (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ١٨١١١), وهذا هو الاستفهام الذي تدور حوله التعريفات, وهو ما ورد في الأصل اللغوي.
- الاستفهام المجازي: وهو الاستفهام الذي يخرج عن معناه الحقيقي, أي يكون لغير طلب الفهم, فقد يكون المستفهم على علمٍ مُسبقٍ بالشيء, ولكنه يخرج بالاستفهام لنُكتة تُتناسب المقام, وتختلف الأغراض التي يرد فيها الاستفهام المجازي, بحسب السياق الواردة فيه (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ١٨٣١١).

يُعد الاستفهام من البُنى الطلبية, التي تُعضِّد دلالة النص عمقًا ووضوحًا في المعاني الطلبية؛ لما له من أثرٍ فعال في تنشيط خيال السامع وشد انتباهه, والاستفهام يأتي متصدرًا للكلام, ولزوم ذلك "لأنَّك لو أخَّرته تَناقض كلامك, فلو قلت : جلس زيدٌ أين؟... جعلت أول كلامك جملة خبرية, ثم نقضت الخبر بالاستفهام, فلذلك وجب أن تُقدِّم الاستفهام, فتقول: أين جلس زيدٌ" (العلوي هـ.، ١٩٩٢م، صفحة ٤٠٢١١), ويُعد السؤال تجلٍ لمُشكلٍ مطروح تجب معالجته, ثم فهو يقتضي تفاعلًا بين الذوات المعنية به, أي انخراطها الخطابي في التفاوض حوله, وهو بذلك يُصبح محركًا للسجال والاستدلال, أي مُنتجًا للعديد من الأقوال التي تقدم نفسها حسمًا للسؤال, أو على الأقل الجواب المناسب عنه, وبما أن المناظرة تُعدُ مطارحة معرفية, فإنَّ بناء قضاياها يتوقف على الإنتاج المستمر للأفكار, وللأجوبة التي يُدلي بها المتحاوران (عادل، ٢٠١٣م، صفحة ٢٠٧). وللاستفهام أدواتٍ متعددة, هي: "الهمزة, وأم, وهل, وما, ومن, وأي, وكم, وكيف, وأين, وأنَّى, ومتى, وأيان", ولكل أداةٍ وظيفتها الخاصة التي تُسهم في تقوية المعنى وتوضيحه.

إنَّ مناظرات الإمام الرّضا عليه السلام زاخرة بالاستفهام الذي تكرر بين أركانها المختلفة, وقد شكَّلَ ملمحًا أسلوبية بارزًا ومرتكزًا دلاليًّا لا غنى عنه في زيادة الدلالة لمقام الكلام, ومنه ما ورد في مناظرته عليه السلام مع المأمون ومجلسه, في الفرق بين (الآل) و(الأُمَّة), وقولهم إن (الآل) يراد بها الأمة بأكملها, فأجاب الإمام عليه السلام, قائلاً: "**فقول الله عز وجل في آية التحريم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾[النساء: ٢٣], أخبروني هل تصلح ابنتي وابنة ابني, وما تناسل من صلبي لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يتزوجها لو كان حيًا؟ قالوا: لا, قال: فأخبروني هل كانت ابنةُ أحدكم تصلح له أن يتزوجها لو كان حيًا؟ قالوا: نعم, قال: ففي هذا بيانٌ لأنّي أنا من آله, ولستم من آله**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ٢١٦\١), يفتتح الإمام الرضا عليه السلام مناظرته معهم بالاستفهام وهذا ما ساهم في تحديد المادة, والاتجاه الذي ستسير فيه المناظرة, وتحددت في بيان فرق الآل (عليهم السلام) عن سائر الأُمَّة, ودفع شبهة القول بأن الأُمَّة هم الآل, وهذا ما تقرر بيانه في نص الإمام عليه السلام معتمدًا في ذلك على أسلوبية الاستفهام, وقد بدأ الإمام عليه السلام كلامه بالاستشهاد بآية التحريم المباركة, لتكون حُجةً له ينطلق منها إلى تفاصيل الخطاب, فقد أصبحت مرتكزًا لا يمكنهم التخلص منه, أو تجاوزه, وبدأ الإمام عليه السلام سؤاله بأداة الاستفهام (هل) التي تؤدي وظيفة طلب التصديق (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٧٤) على حُجّته في اثبات حُرمة زواج النبي محمد صلى الله عليه وآله من نسله عليه السلام, وهذا دليلاً قاطعًا لبيان الفرق بين الآل والأمَّة, وقد عزَّزت أسلوبية الاستفهام توضيح المعنى وتثبيته في نفس المتلقي, فبعد سؤاله لهم (هل تصلح ابنتي وابنة ابني, وما تناسل من صلبي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوجها لو كان حيًا), جاء جوابهم مؤكِّدًا نفي هذا الأمر وإثبات حُرمته, وهو تصديقٌ لما ذكره عليه السلام, ثم كرر الإمام سؤاله بصيغة تخصّهم, بقوله: (فأخبروني هل كانت ابنةُ أحدكم تصلح له أن يتزوجها لو كان حيًا؟) والمعنى متصل مع ما سبقه من استفهام, وغايته تأكيد الأمر لدى السامع, فقد ورد جوابهم موافقًا عليه ومؤيدًا له؛ وذلك لأنَّه من الأدلة العقلية التي لا يستطيع أحد أن يردها, كما أن أثر الاستفهام كان واضحًا على مقام المتلقي عن طريق زيادة عمق المعنى ودلالته.

ومن مناظرته عليه السلام مع الجاثليق, قال: "**يا نصراني والله إنَّا لَنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم, وما ننقم على عيساكم شيئًا إلَّا ضعفه, وقلة صيامه وصلاته, قال الجاثليق: أفسدت والله علمك, وضعَّفتَ أمرك, وما كنت ظننت إلَّا أنك أعلم أهل الإسلام, قال الرضا عليه السلام: وكيف ذلك؟ قال الجاثليق: من قولك إن عيسى كان ضعيفًا, قليل الصّيام, قليل الصّلاة, وما أفطر عيسى يومًا قط, ولا نام بليلٍ قط, وما زال صائم الدّهر, وقائم اللّيل, قال الرّضا عليه السلام: فلمن كان يصوم ويصلي؟ قال: فخرس الجاثليق وانقطع**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٤٣\١), إنَّ البنية الاستفهامية في النص السابق جاءت مُقوّية لمعنى النص, فأخذ الإمام عليه السلام النص للناحية التي أراد أن يدور الكلام حولها, وهي مسألة اتخاذ عيسى عليه السلام ربًا يُعبدُ من دونِ الله عز وجل, وقد استطاع أن يُبطل هذا القول عن طريق اتباعه للدليل العقلي, والحُجّة المنطقية التي تضادُ مع معتقدهم, وهناك

حضورًا للاستفهام الحقيقي في كلام الإمام عليه السلام, فبعد أن ذكر صفات نبي الله عيسى عليه السلام التي جعلت النصراني يُنكر على الإمام قوله, فقال: (أفسدت والله علمك...) ونرى الإمام قد فرَّق بين نبي الله عيسى عليه السلام الذي يؤمنُ به المسلمون, وهو الذي بشَّر بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحثَّ على اتّباعه ونُصرته, إلَّا أن هذه الصفات لا تنطبق على من يؤمن به النصارى, فهم يعتقدون فيه أنَّه إلهٌ, وابن الله عز وجل, وبناءً عليه أنكر الإمام عليه السلام قلَّة صلاته وصيامه؛ لإثارة النصراني وجعله يقول ما قال فتكون الحُجّة أقوى وأشد, فإنَّ سؤال الإمام عليه السلام في قوله (كيف ذلك), مستخدمًا أداة الاستفهام (كيف) التي تُفيد السؤال عن الحال (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٧٧)؛ ليتبين منه عن الأمر الذي أنكره عليه, فقد كان سؤالًا أراد به الإمام تحويل مسار الحديث ونقله إلى نقطة أعمق من ذلك, وهنا تكمن قوة أسلوبية الاستفهام في تركيز دلالة النصوص, فالإمام يعلم الأمر الذي أنكره النصراني, وكذلك يعلم أن صفاته –عيسى عليه السلام– في معتقدهم عكس ذلك, وإنما هو استفهام لتحديد الاتجاه الذي سيُنهي الإمام عليه السلام المناظرة به, فسؤاله اللاحق لا يمكنه الهروب منه, فبعد أن أثبت النصراني –ردًا على الإمام عليه السلام– أن عيسى عليه السلام كان كثير الصيام كثير الصلاة, جاء سؤال الإمام بقوله (فلمن كان يصوم ويصلي؟!), الذي هو حصيلة لكل ما تقدم, فالأداة (من) التي تُفيد السؤال عن الجنس من ذوي العلم (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٧٦)؛ الذي يستحيل معه أن يخرج النصراني من شِراكه, فقد تَبيَّن للسامع بُعد الأمر واستحالته, فإن كان ربًا فمن هذا الذي يُصلي له ربًا؟! وإنَّما صلاته وصيامه كانت تأكيدًا لعبوديته لله عز وجل, وهذا ما لم يستطيع النصراني أن يتخلص منه, أو أن يرد عليه, وعن طريق الارتكاز على أسلوب الاستفهام استطاع الإمام عليه السلام تحقيق غاية المناظرة, وهي إسكات الخصم ودحض حُجّته.

ومن مناظرته عليه السلام مع رأس الجالوت, قال: "**ما الحُجّة على إنَّ موسى ثَبتت نبوته؟ قال اليهودي: إنَّه جاء بما لم يجيء به أحد من الأنبياء قبله, قال له: مثل ماذا؟ قال: مثل فلق البحر, وقلبه العصا حيَّة تسعى, وضربه الحجر فانفجرت منه العيون, وإخراجه يده بيضاء للناظرين, وعلاماته لا يقدر الخلق على مثلها, قال له الرضا عليه السلام: صَدقتَ في أنَّه كانت حجته على نبوتهِ أنَّه جاء بما لا يَقدر الخلق على مثله, أفليس كُل من ادعى أنَّه نبي, ثم جاء بما لا يقدر الخلق على مثله, وجب عليكم تصديقه؟!**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٤٩\١), إنَّ التدرج بدلالة المعنى في نص الإمام عليه السلام دعاه إلى الارتكاز على أسلوبية الاستفهام, وجعلها محور الخطاب, فقد استطاع الإمام عليه السلام أن يُثبت تناقض اليهودي باعتماده على البنية الاستفهامية وجعلها محرك للنص, فترى اليهودي كلما تعمق في جوابه وعدده, يصل إلى غاية الإمام التي سأل من أجلها؛ ليُسكته عِبرَ الاحتجاج عليه من كلامه, فيكون تأثيره أبلغُ في نفسه وفي نفس من يسمع, وقد افتتح الإمام الرضا عليه السلام كلامه بسؤالٍ يوجه فيه الخطاب في الاتجاه الذي أراده, مُصدّرًا كلامه بأداة الاستفهام (ما) والتي يراد بها طلب شرح الشيء (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ١٨٢\١), فالإمام يطلب من اليهودي أن يُبين الحجة على إثبات نبوة موسى عليه السلام من العقيدة

اليهودية, وفي ذهن الإمام بُعدًا آخر للسؤال وغاية أخرى, فهو على معرفة بمعتقدهم, إلَّا أنَّه أراد يتبين من اليهودي الأسباب التي دعتهم ليُؤمنوا بموسى عليه السلام, فأجاب اليهودي بقوله: (إنَّه جاء بما لم يجيء به أحد من الأنبياء قبله), وجواب اليهودي لم يكُن فيه تفصيلًا كافيًا لما أراد الإمام أن يذكر, فأتبع جواب اليهودي سؤالًا يُريد به التفصيل فقوله: (مثل ماذا) إنما جاء استفسارًا لهذه الخوارق التي جاء بها, وكذلك تدرجًا لما ستصل إليه المناظرة, وهو ما جعل اليهودي يسترسل في بيان المعجزات المعروفة التي جاء بها نبي الله موسى عليه السلام, وبعد تفصيل اليهودي وذكره لمعجزات موسى عليه السلام يصل الإمام إلى غايته, ويشرعُ في بُطلان المعتقد الذي استند إليه اليهودي, عِبرَ الاستدلال العقلي الذي يُبين باطل قوله, فبعد أن أثبت قول اليهودي لمعجزات موسى عليه السلام, تبين أن سؤال الإمام عليه السلام كان عن معرفة سابقة له بما استفهم عنه, وكذلك معرفته بتفاصيل المعجزات, إلَّا أنه أراد لليهودي أن يذكرها ليختم حجته عليه السلام بسؤالٍ لا يستطيع اليهودي أن يتخلص من شِراكه, فقال: (أفليس كُل من ادعى أنَّه نبي, ثم جاء بما لا يقدر الخلق على مثله, وجب عليكم تصديقه؟) وهنا تضافرت أسلوبيه الاستفهام مع التعجب, لإنكار كل ما ادّعاه اليهودي, عن طريق الاتكاء على أداة الاستفهام (الهمزة) التي تستعمل لطلب التصديق من حيث الثبوت والانتفاء (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٧٤), والتي وردت استنكارًا على حُجة اليهودي, فإنَّ هنالك من يأتي بأمور لا يستطيع سائر الخلق أن يأتوا بمثلها, فإن ادّعوا أنهم أنبياء و مرسلين هل يجب تصديقهم؟ وهو سؤال ينم عن ذكاء مفرط, وله مصداقا من القرآن الكريم في الآيات التي تروي ما حصل مع موسى وسحرة فرعون, عندما أتوا بسحرٍ عظيم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ٦٦] إلَّا إن المعجزة الربانية تختلف عن ذلك, ودائمًا ما تكون لها الغَلبة على سواها, واستطاع الإمام عليه السلام من خلال هذا السؤال أن يُنهي المناظرة بأن أفحم اليهودي وأسكته, وذلك بما حققته أسلوبية الاستفهام من تدرجٍ في المعنى, وتحويل الكلام إلى المقام الذي أراد الإمام عليه السلام الوصول إليه.

ومن مناظرته عليه السلام مع رأس الجالوت, حول إثبات نبوة محمّد "صلّى الله عليه وآله وسلم", فقد سأله اليهودي قال: "**مِن أين تُثبت نبوة محمّد "صلّى الله عليه وآله وسلم"؟ قال الرّضا عليه السلام: شَهد بنبوته موسى بن عمران, وعيسى بن مريم, وداوّد خليفة الله عز وجل في الأرض. فقال له: ثبّت قول موسى بن عمران, فقال له الرّضا عليه السلام: هل تعلم يا يهودي أنّ موسى أوصى بني إسرائيل فقال لهم: إنَّه سيأتيكم نبي من إخوانكم فيه فصدِّقوا, ومنه فاسمعوا, فهل تعلم أن لِبني إسرائيل أخوة غير ولد إسماعيل؟ إن كنت تعرف قرابة إسرائيل من إسماعيل والسبب الذي بينهما من قبل إبراهيم عليه السلام, فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه, فقال له الرّضا عليه السلام: هل جاءكم من أخوة بني إسرائيل نبي غير محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: لا, قال الرّضا عليه السلام: أوليسَ قد صحَ عندكم؟ قال: نعم**" (الصدوق، ١٩٨٤م، الصفحات ١٤٧\١١-١٤٨), لقد ارتكز جواب الإمام عليه السلام لإثبات نبوة محمّد "صلّى الله عليه وآله وسلم" على أسلوبية الاستفهام فقد وردت بصورة حجاجية؛ ليزيد من قوة دلالة النص,

فإنَّه سيحتج على اليهودي من كتابه, مما أرغم اليهودي على الاعتراف بحقيقتها وعدم إنكارها, وبعد مُحاولة اليهودي للظفر بالمناظرة عن طريق البدء بالسؤال, نرى الإمام قد استخدم سلاح الاستفهام ذاته؛ فقد بدأ الخطاب بسؤال اليهودي بأداة الاستفهام (أين) التي ترد للسؤال عن المكان (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٧٨), أي الموضع من التوراة الذي ذَكر نبوة محمد ﷺ, وهنا يُجيب الإمام عليه السلام ليُثبت أنَّ جميع الأنبياء الذين سبقوه قد شهدوا له بالنبوة, واختص بذكره موسى بن عمران, وعيسى بن مريم, وداوّد النبي (عليهم السلام جميعًا)؛ كون أتباعهم هم المُجادلين, لذا سارع اليهودي إلى طلبِ تثبيت قول موسى عليه السلام, ويُجيب الإمام باستخدام الاستفهام (التقريري) الذي يطلب فيه الإمام تصديق كلامه أو إنكاره, وذلك عن طريق تصدير الأداة (هل), ثم أردفه باستفهامٍ أراد فيه الإمام بيان النسب المشترك بين إسرائيل وإسماعيل (عليهم السلام), من قِبَل إبراهيم عليه السلام, ويُجيب اليهودي بإثبات ما سبق من قول الإمام وتصديقه, ثم أردف الإمام عليه السلام ويستفهم من اليهودي إن كان قد جاء أحدٌ يدّعي بأنه نبي من أخوة إسرائيل غير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم, وفي ختام المناظرة يستفهم الإمام عليه السلام مُصدرًا أداة (الهمزة)؛ لطلب تصديق كل ما سبق من قول الإمام أو إنكاره, ليُزيد من تأثيره في السامعين, ويُثبت بذلك مدى علمه بالعقيدة اليهودية وحفظه لكتابها, وهو ما أقره اليهودي مُعلِنًا بذلك الهزيمة في المناظرة, ومستسلمًا للحق الذي أظهره الإمام عن طرق إبداعه في استخدام أسلوبية الاستفهام بهذه الطريقة.

ومن مناظرته عليه السلام مع قومٍ في وصف الإمامة وذكر فضل الإمام ورتبته, وعِظم قدره, وأنهم يُنصَّبون من قبل الله عز وجل لا باختيار الناس, قال عليه السلام: "**وكيف يُوصَف أو يُنعَت بكُنهِهِ؟ أو يُفهم شيءٌ من أمرهِ, أو يوجد من يقوم مقامه, ويُغني غناه... فأين الاختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟ وأين يُوجد مثل هذا؟**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٩٨\١), لقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي في النص السابق ليدخل في باب الاستفهام المجازي الذي ورد بدلالة (النفي) (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ١٩٢\١)؛ ليُسهم في تعزيز المعنى, ويُثبت حق الإمام وشأنه في الأمّة وعظمة قدره عند الله عز وجل, وتبيَّن ذلك عن طريق توالي الجمل الاستفهامية وتضافر معناها, أضف إلى ذلك فإنّ الارتكاز على أسلوب الاستفهام المجازي عزَّز من عمق المعنى وزاد تأثيره, فإنّ سؤال الإمام عليه السلام بأداة الاستفهام (كيف) التي صدَّرها كلامه, أراد من ذلك الاستفهام عن إمكانية وصف الإمام والوصول لمعرفة قدره وشأنه, وهو ما لا يمكن إدراكه لاتصالها باختيار الخالق تعالى, ولتحقيق دلالة البُعد التي تُساوي استحالة وقوع هذا الأمر, بمعنى كيف لهم أن يحققوا ذلك ومن أين لهم تحقيق ذلك, وهنا يظهر ملمحًا آخر من ملامح الاستفهام المجازي وهو معنى (الإياس) (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ١٨٦\١), ليدل على أهمية الأمر وخطورته وكذلك ليُساهم في شدّ ذهن المتلقي واستمالة وجدانه, وتتوالى جمل استفهامية في كلام الإمام عليه السلام, بقوله: (أين الاختيار من هذا), و(وأين العقول عن هذا), و(وأين يوجد مثل هذا), وهذه الجمل الاستفهامية المتتالية, وردت مسبوقة بأداة الاستفهام (أين) التي ترد للسؤال عن مكان وجود ذلك الاختيار الذي يُغني عن الإمام, وأين هذه العقول التي

تستطيع أن تختار بديلًا للإمام المُختار من قبل الله ﷻ, وأين هو الذي يحل محل الإمام المُنصَّب من قِبَل الخالق ﷻ, وقد ساهم أسلوب الاستفهام المجازي الذي ورد في كلام الإمام عليه السلام نافيًا لمعاني ومُبعدًا معاني أخرى, ليكون مُساندًا دلاليًا ورافدًا من روافد المعنى الذي أراد الإمام تقريره.

يتبين مما تقدَّم أن أسلوبية الاستفهام قد شكَّلت محورًا أسلوبيًا تدور في فلكه دلالات المعاني في مناظرات الإمام الرضا ,عليه السلام التي ارتكزت عليها مفاصل النصوص فيما يختص بمقامها, فقد وفرَّت للمناظرات اتساعًا دلاليًا من خلال ورود الاستفهام المجازي الذي خرج لوظائف متعددة تخدم السياق وتقويه, فمنها ما كان تقريريًا, ومنها ما كان نفيًا, ومنها ما ورد للاستبعاد وغيرها, وهذا التنوع الوظيفي للبنية الاستفهامية, استطاع أن يزيد من تأثير المعنى في المتلقي, وبالنتيجة الظفر والغَلبة وبيان الحق في المناظرة, و هو أُسّ المناظرات وغايتها.

المَطلَـب الثَّــاني

أُسلُـوبيــة الأمــر

الأمرُ بابٌ من أبوابِ الإنشاء الطلبي الذي يرتكز على ركنين الخطاب هما المرسِل والمرسَل إليه, وهو لغةً, ضد النهي, أَمرَ يأمُر, ويقال: أمَرَه فأتمَر, وله عليَّ أمرَةٌ مُطاعةٌ, أي: له عليَّ أمرَةٌ أُطيعُهُ فيها (منظور، ٢٠٠٥م، صفحة ٢٥١٣). أما في الاصطلاح, فإنّ العلماء الأوائل عرّفوه بأنَّه "صيغة تستدعي الفعل, أو قولٌ يُنبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء" (العلوي ي.، ١٩١٤م، الصفحات ٢٨١\٣-٢٨٢), أما المحدثون فقد حصروا معناه بأنَّه "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام" (هارون، ٢٠٠١م، صفحة ١٤), فالأمر هو طلب الآمر من المأمور طاعته في الفعل على جهة الاستعلاء على المأمور, ويُقصد بالاستعلاء أن ينظر الآمر لنفسه على أنه أعلى منزلة من المأمور, سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع, أم لم يكن كذلك, وإلزامه بفعل الأمر, وهذا يُشكّل أصل باب الأمر؛ كونه يدل على وجوب الفعل, فإن دل على غير الوجوب يكون بقرائن تدل عليه في النص (عتيق، ٢٠٠٩م، صفحة ٧٥).

وبنية الأمر لا تأتي على صيغة واحدة, فله أربع صيغ تدل عليه, هي: (فعل الأمر, المضارع المقرون بلام الأمر, اسم فعل الأمر, المصدر النائب عن فعل الأمر) (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ٣١٤\٣١٣\١), وإن كانت الهيمنة في العموم لفعل الأمر؛ كونه يؤدي الغرض بصورة مباشرة وواضحة, لذلك اهتم الدارسون –عامة– والبلاغيون –ولاسيما– ببنية الأمر؛ فلم تقتصر على أنها بنية انشائية طلبية وإنما تجاوزته إلى عدّها بنية توليدية, فهي لا توجب الإلزام بأصل المعنى بل تحاول أن تُنتج ما لم تتعود اللغة إنتاجه بالتزامها بقوانينها العامة, وعدم العدول عنها (عبدالمطلب، ١٩٩٧م، صفحة ٢٩٣), وقد وردت دراسة بنية الأمر في هذا المطلب بعد إخراجه من

الأصل الذي وضع له, وهو الإلزام على جهة الاستعلاء, فقد ورد هنا "ليس فعلًا حقيقيًا, إذ لا يدل على حدث بقدر ما يدل في الأصل على طلب القيام بحدث" (الطرابلسي، ١٩٨١م، صفحة ٣٥٨), لذلك تركَّزت دراسته حول دلالة بنية الأمر في مناظرات الإمام الرضا عليه السلام, وعلى النشاط الذي تبعثه هذه البنية في تركيب النص.

ومنه ما جاء في مناظرته عليه السلام مع رأس الجالوت, قال عليه السلام: "**يا يهودي أَقبِل عليَّ أسألك بالعشرِ الآيات التي أُنزلت على موسى بن عمران** عليه السلام" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٤٥\١), يُبادر الإمام الرضا عليه السلام إلى سؤال اليهودي عن معجزات نبي الله موسى عليه السلام, التي ثبتت لدى سائر الديانات والأمم, ومعرفة النظرة اليهودية لهذه المعجزات, وكيف أنهم حرّفوا دلالاتها, فقد أنكروا نبوة كل نبي لم يأتِ بمثل ما أتى به موسى عليه السلام, ولأهمية المسألة صدَّر الإمام عليه السلام كلامه بالنداء؛ ليستدعي انتباه السامع, فإنَّ "مما يُقوَّى به أسلوب الأمر وقوعه بعد النداء... فالنداء يُوقظ النفس, ويُلفت الذهن؛ لأنه طلب, فإذا جاء الأمر صادَفَ نفساً مُهيأةً يقظةً, فيقع منها موقع الإصابة, حيث تتلقاه بحسٍ واعٍ, وذهنٍ متنبه, وهذا يدل على عناية (الآمر) بأمره, ورغبته في اعداد النفوس لتلقيه" (موسى، ١٩٨٧م، صفحة ٢٥٦), وقد ورد فعل الأمر (أَقبِلْ) في كلام الإمام عليه السلام, وقد وجد نفسًا مُستعدة لاستقبال الأمر, ولم يُراد به المعنى الحقيقي للأمر, أي إلزامه بالإقبال عليه والتقرب منه, وإنما غايته أن يطلب منه الإقبال بذهنه وتركيزه ووجدانه والإنصات لما سيُقال, وهذا يدل على اهتمام الإمام عليه السلام بإظهار الحق وبيان القول الخاطئ في المعتقد اليهودي بشأن هذه المعجزات, فضلًا عن ورد الأمر لغرض (الالتماس) ليُوحي لليهودي بأن قصده هو بيان الحق وليس الاستعلاء عليه, أو الاستهزاء بمعتقده, لذا تراه اختار صيغة تدل على المساواة بين الطرفين, باختياره للفعل (أقبل) دون سواه مما يُرادفه في المعنى, فهو يأتي بمعنى (لزِمهُ وأخَذَ فيه), وأيضًا تدل على أن هذا الأمر مُقدمًا عمَّا سواه (الفيروزآبادي، ٢٠٠٨م، صفحة ١٢٨٤), وهذا هو غرض الإمام عليه السلام من أمر اليهودي بصيغة الأمر هذه, فهو يطلب منه أن تحويل حواسه ناحية الإمام لتلقي السؤال بذهنٍ منفتح ووجدان حاضر.

ومنه مناظرته عليه السلام مع عمران الصابئ عندما أراد أن يسأل الإمام قال: "**أتأذن لي أن أسألك, قال الرضا عليه السلام: إن كان في الجماعة عمران الصابئ فأنت هو, قال: أنا هو, قال: سَلْ يا عمران وعليك بالنصفة, وإياك والخطل والجور, فقال: والله يا سيدي ما أُريد إلَّا أن تُثبت لي شيئًا أتعلق به فلا أجوزه, قال: سَلْ عمَّا بدا لك**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٥١\١), يتبين من جواب الإمام عليه السلام أنه قد سمعَ بعمران الصابئ ولم يلتقيه, وتعرف عليه عن طريق منطقه وتأدبه في السؤال, فتعرف عليه الإمام عليه السلام ودعاه للسؤال عما يدور في ذهنه, مع إيراد أسلوب (النهي) بقوله: (وإياك والخطل والجور), فنهاه عن التعجل في الرد والظلم في كتم الحق, وأن لا يُكابر إن بان له وجه الحقيقة, وقد أكد حسن نواياه بأن غايته هي معرفة الحق والتشبث به, وقد شكَّلت أسلوبية الأمر

مهيمنًا أسلوبية في النّصّ, على الرغم من تعدد الأساليب التركيبية فيه, من (نهي) و(نداء) و(استفهام), إلَّا أن فعل الأمر (سَلْ) تكرر مرتين في كلامه عليه السلام, فالمرة الأولى أتبعه ببنية النداء والنهي؛ ليزيد من تأثيره في وجدان المتلقي, وقد خرج الأمر عن معناه الإلزامي إلى غرض (الإباحة), فأباح له الإمام أن يسأل مع بيان الشروط التي سيسير عليها الحوار بينهم بعد طلب الصابئ للسؤال والمناظرة, وفي المرة الثانية بين له أن الأمر متاح وفي جميع المواضيع, وذلك بعد أن أخذ ميثاقه بأن لا يتسرع ولا يظلم, وتكرار الفعل نفسه يُعزز من تأثيره في متلقي النص, مع إضافة عبارة (عما بدا لك) حتى لا يتوهم بأن هناك مواضيع محظور التطرق إليها, فقد دل الفعل على إباحة السؤال والحوار في أي موضوع كان من دون أن يتردد, وساهمت بنية الأمر في إبراز هذا المعنى وترسيخه لدى السامع, وأثبتت ثقة الإمام عليه السلام بعلمه, وقدرته على الخوض والحديث في المجالات أجمع.

ومن مناظرته عليه السلام مع الجاثليق بعد أطلب من الإمام إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وآله من الإنجيل, فالتفت الإمام إلى رأس الجالوت اليهودي, وقال له: "**ألست تقرأ الإنجيل؟ قال: بلى لعمري, قال: فخُذْ على السِفر فإن كان فيه ذكر محمّد وأهل بيته وأُمَّته فاشهدوا لي, وإن لم يكن فيه ذكره فلا تشهدوا لي, ثم قرأ عليه السلام السِفر الثالث حتى بلغ النبي صلى الله عليه وآله وقف, ثم قال: يا نصراني إني أسألك بحق المسيح وأمه, أتعلم اني عالمٌ بالإنجيل, قال: نعم**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٤٢\١), أراد الإمام الرضا عليه السلام الاحتجاج على النصراني من كتابه, وقد جعل اليهودي شاهدًا على كلامه من غير ملته, عالمًا بالإنجيل حتى يُثبت قوله أو يَنكره, فقد أمره أن يستحضر السفر الثالث من الإنجيل الذي فيه ذكرٌ للنبي وأهل بيته (عليهم السلام أجمعين), ثم التفت لهم جميعًا وأمرهم أن يشهدوا بالحق, فإن قال الصدق شهدوا بذلك, وإن لم يكُن صدقًا يشهدوا أيضًا, وقد شهد النصراني له بأنَّه عالمٌ بالإنجيل, وتتضح جليًا هيمنة أسلوبية الأمر في كلام الإمام عليه السلام, فقد ورد الأمر للمخاطب المفرد في قوله (فخُذْ) الذي وجهه لليهودي؛ ليشد ذهنه لكلامه, وقد خرج فعل الأمر (خذ) عن معناه الذي هو (التَّناول) (الفيروزآبادي، ٢٠٠٨م، صفحة ٤١), فغاية الإمام منه أن يستحضر السفر الثالث في ذهنه ويتنبّه له, ثم ترى الأمر يتغير من الأفراد إلى الجمع, فقد وجَّه كلامه إلى كلِ من يعلم الإنجيل بأن يشهدوا على قوله, وهذا الالتفات في الخطاب ساهم في زيادة قوة المعنى وتأثيره, فضلًا عن تضافر البنى الطلبية المختلفة في النص من (استفهام) و(نهي) و(أمر), فقد أضفت هذه البُنى قيمة دلالية تُضاف لتركيب النص, خاصة بنية النهي فإن استعمال الأمر والنهي في سياقٍ واحد يُكسيه طرافةً خاصة, وبُعدًا مختلفًا في تأثيره, واستقباله (الطرابلسي، ١٩٨١م، صفحة ٣٦٥), وذلك إنما كان لاستمالة قلوب السامعين وبيان وجه الحق وتوضيحه.

ومن مناظرته عليه السلام مع عمران الصابئ عندما سأله عن الخالق عز وجل, قال: "**يا سيدي أهوَ في الخلق, أم الخلق فيه؟ قال الرضا عليه السلام: أَجَلْ يا عمران عن ذلك, ليس هو في الخلق, ولا الخلق فيه, تعالى عن ذلك وسأعلمك ما**

تعرفه, ولا قوة إلَّا بالله, أخبِرني عن المرآة أنت فيها, أم هي فيك؟ فإن كان ليس واحد منكما في صاحبه, فبأي شيءٍ استدللت بها على نفسك يا عمران, قال: بضوء بيني وبينها, قال الرضا عليه السلام: هل ترى من ذلك الضوء في المرآة أكثر مما تراه في عينك؟ قال: نعم, قال الرضا عليه السلام: فأرِناه, فلم يُحرِ جواباً" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٥٣١١), إن إنكار الإمام الرّضا عليه السلام لسؤال الصابئ وتوبيخه عليه, كونه وصف الخالق تبارك وتعالى بصفاتٍ تنتقص من ربوبيته عز وجل, فإن قول (هو في الخلق) هو من أقوال (الحلولية) الذين يدَّعون أنه عز وجل قد يحل في بعض خلقه, لذا سارع الإمام بنفي هذا الأمر, ونهاه عن قول مثل هذه الأقوال, ومثَّل له بمثال المرآة, وانعكاس الصورة فيها من خلال الضوء الذي يكون بينهما فيوجب بذلك رؤية الصور التي تقابلها, والضوء شيء مختلف عن الصورة المعكوسة وعن المرآة, وقد سد الإمام عليه كل بابٍ يمكن أن يحاول النفاد منه, عندما طلب منه أن يُريه هذا الضوء, أضف إلى ذلك أن البُنى التركيبية المهيمنة في النص السابق كانت لأسلوبية الأمر, الذي مثلت مرتكزًا للنص الذي دارت حوله دلالته, فإن فعل الأمر (أخبرني) قد خرج من طبيعة الأمر الاستعلائية الإلزامية, وشكل نوعًا من التساوي في المكانة بين الطرفين بعد خروجه لغرض (الالتماس) الذي يُزيد من تأثيره في متلقي النص, ويُزيد من تقوية معناه, وبعد تبسيط الأمر للمتلقي من خلال ضرب المثال, وبعد جواب الصابئ برؤية الضوء, أمره الإمام عليه السلام بأن يُظهر هذا الضوء للجميع فيرونه, بقوله (فأرِناه) وهو فعل أمر خرج عن حقيقته, إلى غرض (التعجيز) فلا يستطيع الصابئ أن يفعل ذلك, لذا لزم الصمت, وقد أضافت بنية الأمر قوة دلالية لتركيب النص, حمَّلته معاني مختلفة في مفاصله.

ومن مناظرته عليه السلام مع الهربذ الأكبر, قال له الرضا عليه السلام: "**أخبرني عن زردهشت الذي تَزعم أنه نبي, ما حُجتك على نبوته؟ قال: إنه أتى بما لم يأتنا أحد قبله, ولم نشهده ولكن الأخبار من أسلافنا وردت علينا بأنه أحلَّ لنا ما لم يُحلَّه غيره, فاتبعناه**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٥٠١١), استهل الإمام الرضا عليه السلام كلامه مع المجوسي بالسؤال عن حجتهم بنبوة زردهشت, ويتبين من هذا السؤال أسلوب الإمام عليه السلام في دحض حجة المخالف تكون من قولهم ومن معتقدهم, فهو على علمٍ بما يقولون, ولكنه يُريد اثبات ذلك من كلامه, ليكون التأثير أقوى وأشد, وقد بادر الهربذ إلى بيان هذا المعتقد بحجة واهية ضعيفة, بأن اتباعهم ما كان إلَّا لأخبار الأقوام السابقين, وهنا ينبري الإمام عليه السلام ليرد عليه, فبدأ كلامه بفعل الأمر (أخبرني) الذي صدَّره كلامه, ليُعبَّر به عن أهمية هذا الخطاب, ولإيصال تعجبه عليه السلام من زعمهم بأن زردهشت نبي من الأنبياء, فأراد أن يستفهم منه عن ذلك, فذكر فعل الأمر لغرض (الالتماس), لتحقيق أسلوبية الاستفهام لغايتها في النص, فإن خروج الأمر في معرض السؤال يكون من باب المساواة بين الآمر والمأمور (السكاكي، ١٩٨٧م، صفحة ٢٨١), وهو الأمر الذي جعل من كلام الأمام واضحًا مُباشرًا, فضلًا عن دوره في تهيئة المتلقي للرد الذي سيأتي على جوابه, وبيان بطلان القول بنبوته.

يتبين مما تقدَّم أن أسلوبية الأمر قد شَكَّلت مهيمنًا تركيبيًا مؤثرًا في مناظرات الإمام الرضا عليه السلام, وقد ورد في معظمه (للالتماس)و (الإباحة)؛ لإشعار المقابل بالتساوي في الرتبة بين الآمر والمأمور, وتنوع الأغراض التي ورد فيها أسلوب الأمر زاد من تأثيره في المتلقي بنحوٍ واضح وحقق بذلك غايته الطلبية للسياق.

المَطلَـب الثَّـالِث

أُسلُـوبيـة النِّـدَاء

يُمثِّل النداء بابًا من أبواب الإنشاء الطلبي؛ لأنَّ مغزاه هو "توجيه دعوة إلى المخاطب, وتنبيهه إلى الإصغاء وسماع ما يُريده المتكلم" (حسن، (د.ت)، صفحة ١١٤), والنداء في اللغة: النِداء والنُداء: الصوت, مثل الدعاء والرغاء, وقد ناداه, ونادى به, وناداه مُناداةً, أي صاح به, وأندى الرجل إذا حسُنَ صوته (منظور، ٢٠٠٥م، صفحة ٧٣٩١٨). أما في الاصطلاح: فهو "التصويت بالمُنادى ليُقبِل, أو هو طلب إقبال المدعو إلى الداعي" (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ٣٢٦١٣). ويعرَّف أيضًا بأنَّه "طلبُ إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ينوب كل حرفٍ منها مناب الفعل (أدعو)" (عتيق، ٢٠٠٩م، صفحة ١١٥), فالنداء إذًا هو طلبٌ في جوهره, وهو طلبٌ قائمٌ على تنبيه المُنادى صوتيًا ليلتفت إلى المُنادي ويُلبيه في أمرٍ يستدعي الانتباه والتركيز.

وللنداء حروفٌ مخصوصة له, هي: "يا, وأيا, وهيا, وآ, وأي, والهمزة", ولكلِ حرفٍ منها خصائصه وصفاته الخاصة, فمنها ما يكون للبعيد, ومنها ما يكون للقريب, وقد ذهب قسمٌ من العلماء إلى أن ما عدا (الهمزة) من أحرف النداء تكون للبعيد, أو من هو بمنزلة البعيد (كالغافل) و(النائم) وأما (الهمزة) فتكون لنداء القريب (السامرائي، ٢٠٠٣م، صفحة ٢٧٥١٤), إلَّا (يا) فهي "حرفٌ موضوعٌ لنداء البعيد حقيقةً, أو حُكمًا, وقد يُنادى بها القريب توكيدًا, وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد, وقيل: بينهما وبين التوسط, وهي أكثر أحرف النداء استعمالًا؛ ولهذا لا يُقدَّر عند الحذف سواها" (الأنصاري، ٢٠٠٠م، صفحة ٤٤٧١٤), وهناك من أضاف (أي) للقريب؛ لأن البعيد يحتاج إلى مد الصوت لندائه و(أي) ليس فيها مد (السامرائي، ٢٠٠٣م، صفحة ٢٧٥١٤), وقد يخرج النداء من معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى, مثل (التعجب, والاغراء, والاستغاثة, والاختصاص, والتنبيه, والتحسر) (مطلوب، ٢٠٠٦م، صفحة ٣٢٦١٣) وغيرها من المعاني.

ومنه ما ورد في قول الجاثليق عندما حَسِب أن الإمام عليه السلام سيُحاجه بالقرآن الكريم, قال يُخاطب المأمون: "**يا أمير المؤمنين كيف أُحاجُّ رجلًا يحتجُ عليَّ بكتابٍ أنا مُنكره, وبنبيٍ لا أُؤمن به؟ قال الرضا عليه السلام : يا نصراني فإن احتججتُ عليك بإنجيلك, أتُقر به؟ قال الجاثليق: وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل؟! نعم والله أُقر به على رغم أنفي**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٤١١١), إنَّ توهم الجاثليق بأن الإمام الرضا عليه السلام سيحتجُ عليه

بآيات القرآن الكريم أو بأحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم, دفعه إلى المطالبة برفع هذا الأمر من المأمون, كونه مُنكرٌ لها ومُكذبٌ بها, وبالنتيجة لا يكون هناك مجال للتناظر والتفاهم, فلا توجد أرضية مشتركة ينطلق منها الطرفين؛ لذلك بادر النصراني إلى الاحتكام إلى المأمون كونه هو الذي دعاهم ليُناظروا الإمام عليه السلام, وقد بادر الإمام للرد على الرجل بأنَّ أدلته, وحُججه ستكون من كتابه الذي يعتقد به, وبشهودٍ من ديانته يرتضيهم هو, وهذا بيان على علم الإمام عليه السلام بالنصرانية ومعرفته التامة بالإنجيل, فقد صدَّر النصراني كلامه مُناديًا المأمون بقوله (يا أمير المؤمنين), مستعينا بحرف النداء (يا) الذي خرج للاختصاص, ليدُلَّ على علو مرتبة المُنادى, فغاية النداء هو تلبية المأمون له وإغاثته, أما الإمام عليه السلام فقد استهل بالنداء أيضًا بقوله (يا نصراني)؛ وذلك ليلفت ذهن الرجل إليه, ولا ينتظر جوابًا من المأمون, فالجوابُ لدى الإمام ولكي يُنصت إلى هذا الجواب, وجب تصدير الكلام بالنداء الذي يحقق هذا الغرض, وقد ناداه بديانته النصرانية؛ ليكون ذلك تحضيرًا لنفسه لما سيدور فيه الكلام بينهم من الاحتجاج بمعتقد هذه الديانة وبكتابها, فقد وافق النداء (يا نصراني) المقام, وخرج النداء لمعنى الإغراء؛ ليستطيع النصراني إكمال المناظرة, وفي ذهنه أن الغَلَبة ستكون من نصيبه, كون الاحتجاج بين الطرفين سيكون من المعتقد النصراني الذي بدوره يجعل أفضلية له, إلَّا أنه على الرغم من ذلك استطاع الإمام الرضا عليه السلام من أن يُفحمه, ويُلزمه السكوت, وقد ساهمت أسلوبية النداء من استقطاب ذهن المُنادى, بل وأذهان النصارى الحاضرين في المجلس؛ لأنَّ النداء ورد باسم الديانة لا بالشخص.

ومن مناظرته عليه السلام مع عمران الصابئ, حول مسألة خلق الله عز وجل, وبعد أن بيَّن حُجّته عليه السلام له, قال: "**تعقلُ هذا يا عمران؟ قال: نعم والله يا سيدي, قال: واعلم يا عمران أنَّه لو كان خَلقَ ما خلق لحاجةٍ, لم يخلق إلَّا من يستعين به على حاجته, ولَكان ينبغي أن يخلُق أضعافَ ما خلق, لأنَّ الأعوان كلما كثروا, كان صاحبهم أقوى, والحاجة يا عمران لا يسعها...**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٥١١١), إن حرص الإمام عليه السلام على بيان الحق للمتلقي دفعه إلى أن يتأكد من أنه فهم مقصده وعقله, لذلك استمر في بيان حجته بعد أن أجاب الصابئ بأنه وعى ذلك وفهمه, فالمسألة تتطلبُ تركيزًا مما دعا الإمام أن يُكرر نداءه بين الحين والآخر, فإن الله تبارك وتعالى خلق خلقه وهو في غنى عنهم, فهم المحتاجون إلى رحمته وعطائه, ولم يحتاج إلى من يُعينه بخلقه سبحانه وتعالى وتدبيره, ولقد تعددت موارد أسلوبية النداء في النص, كما إنها ورد مهيمنة على باقي الدلالات التركيبية فيه, فقد كرر الإمام الرضا عليه السلام نداء (يا عمران) ثلاث مراتٍ, وهذا التكرار في نصٍ وجيزٍ يدل على أهمية الإمر المُتحاور فيه, والإرادة من وراءه شدّ ذهن المتلقي إلى الكلام, فتجد أن نداءه الأول ورد مُقترِنًا بأسلوبية الاستفهام عما سبق من الحجج, ومدى وضوحها وفهمه لها, والنداء الثاني ورد مقترِنًا بأسلوبية الأمر, والنداء الثالث جاء مقترِنًا بأسلوبية النفي, وبذلك يكون قد حقق النداء غاية التأثير في متلقي لنص, لكونه ورد مقترنًا بمختلف الأساليب الطلبية التي ساهمت في تنشيط نفس المتلقي وتهيئتها لاستقبال الفكرة المطروحة, وإذا اقترن النداء مع باقي الأساليب غالبًا ما يأتي

مُقدمًا عليها, وإن سبقه أحدها فإنما يكون لعلةٍ دلالية (موسى، ١٩٨٧م، صفحة ٢٦٣), وهو ما نلتمسه جليًّا في النص المُتقدم, أما نداء الصابئ للإمام عليه السلام بقوله (يا سيدي) فهو من بابِ تثبيت مكانة الإمام ورفعة قدره, فلم يُناديه باسمه أو لقبه وإنما ناداه بالسيادة عليه, وهذا النداء يُوحي بباطن الرجل ومدى تأثره بحجج الإمام والاقتناع بكلامه ومنطقه.

ومنه ما ورد بعد مناظراته عليه السلام مع أصحاب المقالات وبعد أن ألزمهم الحجة وأفحمهم, التفت إلى كل من حضَرَ المجلس وقال لهم: "**يا قوم إن كان فيكم أحد يُخالف الإسلام وأراد أن يَسأل, فليسأل غير محتشم**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٥٠\١١), إن هذا القول لا يَصدرُ إلَّا من رجُلٍ كله ثقه بما لديه من علمٍ ومعرفة بالدين الإسلامي, كيف لا وهو أعلم أهل زمانه فيه, كما إنَّ المجلس كان مُكتظًا بالعلماء والمتكلمين, من طوائف وديانات مُختلفة, فطلب منهم أن يتقدم من عنده أي سؤال عن الدين الإسلامي, فإنه لا يوجد أعلم بالإسلام منه عليه السلام, ونداءه بقوله: (يا قوم) موجهاً إلى الجميع على حدٍ سواء, وترى هذا النداء قد أثرى النص دلالياً, فقد لفت الناس جميعاً إلى مدى صلابة الدين الإسلامي ومدى يقينه به وعلمه بمسائله, فلم يخص الإمام طائفة معينة أو شخصٌ محدد, فقد استعمل الأداة (يا) التي تتميز بمد الصوت أثناء النداء بها (السامرائي، ٢٠٠٣م، صفحة ١٧٦\١٤)؛ ليصل إلى جميع من حضر, أضف إلى ذلك أن هناك غاية مضمرة أنتجتها أسلوبية النداء, وهي بيان أحقية أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بالإمامة والخلافة, أمام من حضر من المخالفين والحاقدين, فإنَّه لا يوجد أحدٌ في الأُمَّة بإمكانه أن يقول مثل هذا القول؛ لأن علمهم (عليهم السلام) هو علمٌ خصهم به الله عز وجل؛ ليكونوا حجته على خلقه, وامتدادًا لشرعه وحكمه.

ومن مناظرته عليه السلام مع سليمان المروزي التي تنوع فيها النداء لمنادى واحد وهو سليمان, فمنها ما كان باسمه, في قوله عليه السلام: "**يا سليمان ألا تخبرني عن الإرادة, فعلٌ هي أم غير فعل؟ قال: بلى, هي فعل, قال عليه السلام: فهي مُحدثة, لأنَّ الفعل كله مُحدث, قال: ليست فعل...**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٦٤\١١), إن مسألة إرادة الله عز وجل من المسائل التي كثر الخلاف فيها والدل حولها, ومَنشأ الخلاف من أنها فعلُ الله عز وجل, أم هي صفةٌ دائمة من صفاته, كالسمع والبصر, وهذا القول الذي دعا الإمام للاستفهام بسؤالٍ يسدّ بوجه المُخاطَب أي باب يحاول الولوج منه, فإن نداء الإمام عليه السلام بقوله (يا سليمان) فقد دل على غاية من وراءه؛ حصر الخطاب به, وتنبيه الرجل ولفته إلى جوهر الموضوع المُتناظر فيه, ولكي يتمكن من أن يُجيب على ذلك لابُد أن يكون ذهنه حاضرًا, مشدودًا مع كلام الإمام.

ومنه ما ورد بندائه باسم مدينته, كما في قوله عليه السلام: "**يا خراساني ما أكثر غلطك! أفليس بإرادته وقوله تكون الأشياء؟ قال سليمان: لا, قال: فإذا لم تكن بإرادته ولا بمشيئته ولا أمره ولا بالمباشرة, فكيف يكون ذلك؟ تعالى**

الله عن ذلك, فلم يُحر جوابًا" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٦٥\١), إنَّ كل ما في الوجود من خلق إنما كان بإرادة الله ﷻ وبمشيئته وعلمه, فلا يكون في الوجود ما هو خارج سلطانه؛ لذلك نرى الإمام عليه السلام يتعجب من قول الرجل, ومن معتقده في الخالق ﷻ, ويلومه على كثرة غلطه وتمسّكه في الغلط, وقد تغير نداء الإمام عليه السلام مع الشخص نفسه, فقد ناداه بـ(يا خراساني) وهنا خرجت الأداة (يا) لغرض الزجر (عتيق، ٢٠٠٩م، صفحة ١١٨), على ما رآه من الرجل من غلط, الذي هو جديرٌ بأن يورده في المهالك, ولعظم خطره نوَّع الإمام في نداءه حتى يُزيد من تنبيهه لما يُقال, أضف إلى ذلك أن من الممكن أن يُوحي نداءه بـ(يا خراساني) أن هذا القول يُمكن أن يكون قد شاع بين أهل هذه البلدة, لذلك نسبه الإمام إليها, ليكون تنبيهًا على غلط كل من يعتقد بمثله, وعندما لجَّ الرجل بغلطه وزاد عناده, وأخذ يُعيد في مسألة الإرادة على الرغم من بيان أمرها من قبل الإمام عليه السلام, فما كان من الإمام إلَّا أن زجره وذمه على ذلك, فقال سليمان: "**فإنَّما قولي إن الإرادة ليست هو ولا غيره, قال الرضا عليه السلام: يا جاهل إذا قلت ليست هو فقد جعلتها غيره, وإذا قلت ليست هي غيره, فقد جعلتها هو**" (الصدوق، ١٩٨٤م، صفحة ١٦٨\١), لا يُمكن القول بأنَّ الإرادة ليست الله ﷻ وليست غيره, فقد أثار هذا القول الإمام حتى ذم الرجل وزجره؛ لأن هذا القول لا يصدر إلَّا من شخصٍ جاهلٍ لا يفهم منطق الأشياء, ثم فصَّل له الإمام في قوله ليُثبت له مدى جهله وتخبطه, أما نداء الإمام عليه السلام له (يا جاهل) إنما جاء باستخدام الأداة (يا), بما أسهم في بيان مدى تخبط الرجل, غاية تنبيهه على ذلك ومحاولة إرجاعه عن هذا القول, فغاية الإمام هي إرادة الخير له, وإن أصرَّ على هذا التخبط والغلط قد يؤدي بنفسه إلى ما لا تُحمد عواقبه, فأراد تنبيهه بأي صورةٍ كانت حتى وإن كانت الذم والحرج؛ ليكون أوقع في نفسه, أضف إلى ذلك فإن مغزى التنويع في المُنادى الواحد إنما يكون مُتعلقًا بمعنى الكلام ودلالة كل نداء, تخص المورد الذي ورد فيه (الطرابلسي، ١٩٨١م، صفحة ٣٦٨), لذلك بدأ الإمام عليه السلام مناظرته معه بندائه (يا سليمان) في موضع استفهامي, وبعد أن قال مقولة تدل على تأثره بما يُقال في بلده ناداه باسمها فقال: (يا خراساني), ثم عندما أخذ يُعيد في غلطه ويكابر ناده (يا جاهل) ولكلٍ منها غايته التي زادت من مقامها تأثيرًا ودلالةً في النص.

ويتبين مما تقدم أن ورود أسلوب النداء في مناظرات الإمام الرضا عليه السلام قد ورد مُرافقًا للمعنى الذي أُريد له, وقد جاء النداء فيها مقصورًا على حرف النداء (يا), ولا عجب في ذلك فهي تُعد أمُّ باب النداء, التي تدخل في جميع أبوابه, على اختلافها وتعددها (المرادي، ١٩٩٢م، صفحة ٣٥٤), وقد تنوعت الأغراض التي جاءت في المناظرات بحسب المقام التي وردت فيه.

الخاتِمة:

- لقد شكَّل الإنشاء الطلبي ملمحًا أسلوبيًا بارزًا في تركيبِ نصوص المناظرات, عِبرَ ورود أسلوب الاستفهام المجازي الَّذي خرج لوظائف متعددة تخدم السياق وتقويه, فمنها مَا كانَ تقريريًا, ومنها مَا كان نفيًا, ومنها مَا ورد للاستبعاد وغيرها.
- وقد ورد أسلوب الأمر في معظمهِ (للالتماس)و (الإباحة)؛ لإشعار المقابل بالتساوي في الرتبةِ بَينَ الآمر والمأمور, ممَّا زاد من تأثيره في المتلقي بنحوٍ واضح.
- ورد النداء مُرافقًا للمعنى الَّذي أُريد له, وقد جاء مقصورًا عَلَى حرفِ النداء (يا), ولا عجب في ذَلِكَ فهي تُعدُّ أمُّ باب النداء, وقد تنوعت أغراض النداء الَّتي وردت في المناظراتِ, بحسب السياق الَّذي وردت فيه.

المصادر والمراجع

١. ابن منظور, (٢٠٠٥م). *لسان العرب* (المجلد الأولى). (عامر أحمد حيدر، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

٢. ابن هشام الأنصاري. (٢٠٠٠م). *مغني اللبيب* (المجلد الأولى). (عبداللطيف محمد الخطيب، المحرر) الكويت: التراث العربي.

٣. أحمد مطلوب. (٢٠٠٦م). *معجم المصطلحات البلاغية وتطورها* (المجلد الأولى). بيروت: الدار العربية للموسوعات.

٤. الحسن بن قاسم المرادي. (١٩٩٢م). *الجنى الداني في حروف المعاني* (المجلد الأولى). (محمد نديم فاضل فخر الدين قباوه، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

٥. عباس حسن. ((د.ت)). *النحو الوافي* (المجلد الثالثة). القاهرة: دار المعارف.

٦. عبد السلام هارون. (٢٠٠١م). *الأساليب الإنشائية في النحو العربي* (المجلد الخامسة). القاهرة: الخانجي.

٧. عبدالعزيز عتيق. (٢٠٠٩م). *علم المعاني* (المجلد الأولى). بيروت: دار النهضة العربية.

٨. عبداللطيف عادل. (٢٠١٣م). *بلاغة الإقناع في المناظرة* (المجلد الأولى). الرباط: دار الأمان.

٩. فاضل صالح السامرائي. (٢٠٠٣م). *معاني النحو* (المجلد الثانية). القاهرة: العاتك.

١٠. مجد الدين الفيروزآبادي. (٢٠٠٨م). *القاموس المحيط*. (زكريا جابر أحمد محمد الشامي، المحرر) القاهرة: دار الحديث.

١١. محمد الهادي الطرابلسي. (١٩٨١م). *خصائص الأسلوب في الشوقيات*. تونس: منشورات الجامعة التونسية.

١٢. محمد بن علي السكاكي. (١٩٨٧م). *مفتاح العلوم* (المجلد الثانية). (نعيم زرزور، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

١٣. محمد بن علي الصدوق. (١٩٨٤م). *عيون اخبار الرضا* (المجلد الأولى). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٤. محمد عبدالمطلب. (١٩٩٧م). *البلاغة العربية قراءة أخرى* (المجلد الأولى). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

١٥. محمد محمد أبو موسى. (١٩٨٧م). *دلالات التركيب دراسة بلاغية* (المجلد الثانية). مصر: مكتبة وهبة.

١٦. هبة الله علي العلوي. (١٩٩٢م). *أمالي ابن الشجري*. (محمود محمد الطناحي، المحرر) القاهرة: الخانجي.

١٧. يحيى بن علي العلوي. (١٩١٤م). *كتاب الطراز*. مصر: مطبعة المقتطف.